بكسلٍ ولا مبالاةٍ

قصص/ جمال بن عبد الله الحيان

بكسل ولا مبالاة

قصص / جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي

965543-009

تحقيق ومراجعة:

الشرطي الخل والصديق

بعد ثلاثين سنة

انسحب عبد العزيز من ضوضاء المدينة، ليتجه لقريته أو بالأحرى قرية أجداده الخمسة، فقد أحسّ بشيء من التعب، فهناك في البدو على الأقل سيجد قليلا من الهدوء النسبي وبعض الهواء العليل. بدأ يعاني آلاما في مؤخرة رقبته، أشبه بتصلب عضلة، وكأن حملا ثقيلا عليه.

اكتفى بحقيبة يد واحدة، فلن تطول غيبته، فقد قرر أن يكون الأمر أسبوعا فقط، فبعد ساعات من السير المتواصل على الطريق الفرعية المترية، تعبت كل أصابعه من حمل الحقيبة، ووقف كي يستريح. لقد بانت تلك القرية المطمورة بين سفحين. بدأ يجول بعينيه ليرى كيف شحبت الألوان التي اعتاد أن يراها هادئة صافية، يراها كأنها بغير لون، لم يعد يرى سوى الأسود والأبيض، توقفت عيناه فجأة ليكمل سيره قائلا: « لا بأس بقليل من الخطى الإضافية»

هو مقبل الآن على دخول قرية للغرباء – على حد قوله – لقد طالت غيبته لما يقارب الثلاثين سنة ونيف، فبعد نصف ساعة من المشي الواهن أبصر يافطة مكتوب عليها: «قبيلة إمين تتلت[1] »، تشهّى تلك الأيام الخوالي، حين كانت الحياة تدب في منزله هناك، يوم كانت الأم والأب والجد والجدة. لقد خشي على نفسه من نعرة السكّان، وفكر في الرجوع للحظة، ورغم ذلك تذكّر بعضا من أصدقاء طفولته، فاتخذها ورقة لفتح جسور الحوار بين أهل القبيلة المتعصبين ضد الدّخيل.

وصل وقد بانت النجوم صافية، وبدأ في التأمل فيها كأنه يراها هكذا لأول مرة، انبثقت منه مشاعر كان قد خبّأها منذ سنين طويلة، كرغبة في الحديث، أو الكتابة، أو حتى الغناء، لم يرجح شيئا من خواطره سوى أنه استرسل معها، اكتفى بغرس نظراته في الضوء القادم من إحدى أعمدة الإنارة – حديثة العهد بالمنطقة – ليهتدي للطريق، كما قد أشعل مصباح هاتفه، وهو لا يبالي بالكلاب التي تنبح من كل بستان يمر بجواره، وفي لحظة تحول تعبه لغضب، فقد كبر على كل هذا المشي الكثير المتعب لتزيد الحقيبة معاناته، أحس بكتفه ستنخلع، يلتفت تارة علّ أحدا ينطق بصوت أو يبدأ حوارا، لكنّ الصمت أطبق . لم يعد يتذكر كيف أقنع نفسه بالرجوع للقرية التي أقسم ألا يرجع إليها، وكيف انجذب إلى خاطرة راودته خلال جلسة بإحدى المقاهي بمدينة «تارودانت [2]»، حدث ذلك بسرعة عجيبة، باستجابة سحرية لم يكن فيها عنف ولا إكراه، بكى وهو يلمح بيته القديم، جزع، كأن مكروها قد يحصل له، فقد أصبح محيط منزله أو منزل أجداده مهجورا، بل حتى تلك الأشواك المحيطة ببستانهم قد اختفت وصار بيته على طريق مستجدة للحمير والبغال والأغنام، والجرارات كذلك.

حضن بطنه وانكفأ وجاء البكاء بعد وقت، وساد المكان صمت جعله ينتبه لصفعات البرد القارس على وجهه كأنها صعقة كهرباء، شلت وأبطلت قوة لسانه، لكن بعد وقت أفلت دموعا حارة لينهي بها طقس الاستقبال والولوج للبيت القديم، نكّس رأسه ... تارة صامت وتارة يقاوم البكاء.

---

[1] إمين تتلت : قرية تابعة لإقليم طاطا بالمملكة المغربية، على مشارف الحدود مع الجزائر .
[2] تارودانت : مدينة مغربية في الجنوب الغربي للمملكة تبعد عن قرية إمين تتلت 200 km تقريبا .

حين وصل إلى مدخل البيت وجده كما تركه، مقفلا بقفل صيني قد صدأ، فبالرغم من كلّ هذا الغياب، إلا أنّ القرى الأمازيغية لطالما صاحبها الأمن والأمان إلى وقت ليس ببعيد.

صخب اللهاث في صدره وقرع الطبول لما قد يجده داخل البيت، فتحه ليبتدئ دخوله بالتسمية وبعض الأذكار، انتصب مباشرة أمام شجرة ليمون لم يتبق منها سوى هيكلها الهزيل، نزع حقيبته نزولا ثقيلا نحو الأرض، انحنى حتى تقوّس ظهره، فليس جديدا عليه هذا الوهن والضعف الضارب في رقبته، وكانت ومضة تخللته وعبرت، أجال نظره قليلا، فعلى يمينه مطبخ صغير لا زالت تفوح منه رائحة الكانون، وبجواره غرفة طويلة على شكل مستطيل لها باب من مصراعين، وأمامه غرفة الضيوف وقتذاك، فقد كانت الأكثر أناقة في المنزل، أجال نظره من جديد ليتفحص الأسقف التي تآكلت مقارنة باستقراره الأول، لا زالت النقوش في غرفة الضيوف، حدث نفسه مستعينا بذاكرته . كم كانت هذه الغرفة مفخرة الأجداد؟ لكنّه عندما أعاد تمرير نظرته على نافذة الغرفة سقطت أطراف من حوافّ كانت تعلق فيها ستارة، تولدت لديه مرارة ودبقت في الريق الجاف ليلاحظ ثقوبا في السقف يتسرب منها ماء الأمطار، مخلّفا خطّا متربا بلون بنيّ فاتح.

كان عبد العزيز رجلا ليس كغيره من الرجال. لطالما تحدى نفسه ليفعل دائما شيئا يفخر به، لا يعود فارغا، يكتسب التجارب أينما حلّ وارتحل، وهو متأكّدٌ يقينا على قدرته في التأقلم، أمثاله لا يستسلمون، ينتزعون ما يريدون بقوة، لا ينقصه شيء، ولا يطأطئ رأسه إلا لخالقه.

كانت أمه محجوبة[3] لا تعرف شيئا عن حياة المدينة، وتظن أنها تعرف كل شيء عن حياة البدو ... ربما، أما بالنسبة لولدها، فقد كانت دائما تفخر به، ولا أظن أنها واهمة، فلم تحصل سوى على طفل وحيد بعد أن سقطت أخته الصغيرة في بئر العائلة إثر هجمة مفاجئة من دبور أو نحلة، فقد تضاربت الروايات ... والعلم لله.

كانت عزيزة تكبره سنا، وبعد وفاتها بسنة تقريبا، رزقت الأسرة الصغيرة بمولود أنساهم فقدان البنت الكبرى، وفرحوا به إيمانا منهم بأن الدنيا تحتاج لسباع كالذكور مثلا، لقد أبكاهم فقدان عزيزة، وطيّب خاطرهم ولادة عبد العزيز.

دخل غرفة الضيوف وهو متعب لدرجة أنه قد يستطيع النوم في أي مكان، كانت الغرفة خالية من أي أثاث، فيستحيل أن يصمد أي ثوب هذه المدة كلها، خلا حصير من السعف قديم على سرير خشبي لا يزال صامدا في ركن من أركان الغرفة، فلم يسلم المنزل من الرعاة اللصوص الذين يتسلقون الحيطان ويسرقون كل شيء، لقد كان السرير ثقيلا وقد يكون هذا هو السبب الرئيس لتركه.

أغمض عينيه ولاذ بالسرير الخشبي المطرز بنقوش قديمة، إلتصق به بعد أن نفض الغبار عليه، ليرمي منشفة على الحصير، دخّن سيجارة على السرير، وهو يحدق للسقف الذي حمل أطنانا من الذكريات، أطفأ سيجارته على الحائط، وقرّب وجهه إليه ليتقي الزمهرير الذي يدخل من الثقوب في السقف، فضحك أو بالأحرى تبسّم ليقول ما لم يستطع قولة منذ ثلاثين سنة: « ما أروع بيت الوالدين » .

إمين تتلت / طاطا / المملكة المغربية .2001/1/1

[3] محجوبة :من الأسماء المغربية المنقرضة، والتي كانت تستعمل بين العرب والأمازيغ على حدّ سواء .

الأعزب

في كل صباح أستيقظ ... بطبيعة الحال أستيقظ ... يا لغبائي ... أأنا جثة تكتب إذن!!

أستيقظ على منبّه كرهته لدرجة الكفر بالمنبهات وأوصالها حالفا باليمين على قطع الصلة بأصهارها وأنسابها، فكلّما سمعتُ تلك النّغمة اشمأززتُ منها ...

في الوقت الذي يتقدّم فيه الفجر خفية، خاليا من الأصوات كروابض الخيول ليلا، والأضواء في الشوارع كالعجائز واقفة جامدة على مشارف البنايات الصامتة ... أستيقظ ساخطا على يوم عمل جديد.

كان الفصل شتاء، والبرد في غرفتي بالطابق العلوي كثلاجة تعصف بها ريحٌ باردة من كلّ حدب وصوب، فلم تستطع النوافذ الحفاظ على دفء المكان، فقد كانت الشقوق التي تتخللها كافية لإبراد الغرفة والملابس والزجاج والفراش وحتى تلك العملات النقدية على الطاولة كانت مثلجة، والباب يسرب بدوره البرد من الشق السفلي والذي كنت أكتفي بسده ببعض ملابسي المتسخة والتي لم يحن دور غسلها بعد، والتي طليت ببقع المنيّ، فقد كنت أستعين بها لمسح عضوي الذكري في كل عملية ناجحة.

في هذا الوقت بالذات قبيل الفجر بقليل، تتوالى عليّ كلّ الأفكار السلبية من ندم وسخط على الواقع والوطن والصديق والصاحبة والعالم، بلا قصد مني، أهمس كأنّي أحدث أحدا: «خيرا إن شاء الله»

«يا غبيّ، أنت تجيب نفسك من جديد، وتحدّثها ... قبّح الله سعيك ...؟»

إنه الصوت من جديد، فلحدّ السّاعة لم أعرف سرّ هذه التناقضات والصراعات داخلي، فالصوت ذاته في كل لحظة، لقد سمعته مرارا وتكرارا، يوما كنت شبه نائم، ويوما كنت قد وضعت الرجل الأولى داخلا لمرآب المنزل، ثقّبت بعيني هادئا بدون إزعاج لمجموعة الكسالى في الطابق السفلي وقلت في نفسي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بكلمات الله التامات من شرّما خلق»

وانصرفت ... مكثت برهة وأنا أفكّر قبل الركوب على دراجتي النّارية وإدارة المفتاح، قررت أن أرى أحد أصدقائي الذي يجيدون فن الرقية، لأرى أحقّا كما يقولون، لأنّ الأعزب السكير مثلي قد تتزوجه جنيّة، وأنا أسترسل في التفكير، انطلقت ريحٌ قد سمع دويها في الزقاق، لأتحسّس رائحتها بكل نشوة ...

شرعت في محاولاتي لإدارة مفتاح الدراجة، وأنا أدّعي المماطلة لأستمتع بإحدى الجارات والتي تراقبني دائما قبل الانطلاق، كانت تطل من منزلها المقابل لمنزلنا، فلا أدري ما السبب الذي يجعلها تستيقظ في هذا الوقت بالذات، فلا أظن أنّ من تحمل وراءها ذلك الكم من اللّحم المتمايل العفن والتي تتعمد تضييق جلبابها عند منطقة الخصر ليتضح ذلك الإطار الذي عجز بيكاسو وداڤينشي عن إبهارنا بلوحة من طرازه، لا أظنّها تسجد لله ولا أظنّها تعرف القبلة، وأقسم على ذلك والعياذ بالله والله أكبر.

تُطلّ عليّ في كل يوم، ولولا معرفتي المسبقة بزوجها المغترب بإيطاليا لقلت مجرّد فضول منها، ولكن لطول غياب زوجها أظنّها قد اشتاقت لمؤنس في هذه الأيام الباردة.

انطلقت مقلعا بقوة لتتمايل بي دراجتي صوب اليمين والشمال متلاعبة بي، لأكتشف أنّ العجلة الخلفية قد نفقت. رجعت إلى المنزل مقررا أن أستريح اليوم، فعند رجوعي بعد خمس منازل تقريبا، وجدت صاحبتنا صاحبة الصحن الفضائي العجيب في عين المكان السابق بعد أن اطفأت مصباح الغرفة وأعادت إشعاله بعدما سمعت صلصلة المفاتيح وأنا أفتح المرآب، أقمت ظهري بكل هدوء وأناة، ولطالما تمنيت أن أنام في أحضان واحدة سمينة لأخفف عني هزالي ووحشتي، ولكي أخترق جسدها وأدخله في ثوبها كالطيف وأمتص بعض الشفاه لأتذوق معنى الحب الحقيقي، لا أشعار، ولا ورود، أريد الحقيقة والحب الحقيقي.

لقد طفقت في روحي رغبة أن أبوح لها بكل شيء، ولكني أخاف أن أتلقى رفضا وفضيحة في الحي، ولكني تساءلت حول مراقبتها، أولا لأرى كيف سيكون هذا المخطط الجديد، وثانيا لأتوغل في حياتها لأرى سرّ هذه الكآبة.

أبقت نظراتها على الغرفة وأنا أراقبها من شق صغير، وأنا أكون ملامح هنداهما الداخلي بكل دقة وبكل مهارة، والتي يمتلكها فنان عازب حاذق، وبدأت في عملية سلخ الثعبان[4]، فلن أدعه يستريح اليوم، فبعد برهة هززت رأسي مرتين وارتجفتُ قليلا وانتهى الأمر، هويت على فراشي ملقى كجثة هامدة تريد النوم الأبدي.

استيقظت في العاشرة صباحا على صوت المنبه الكريه المزعج، نقرت على الهاتف نقرات متتابعة لأطفئ اللعين، توقف فجأة.؟ مرت على فكري المكدود غيمة أحاديث تنتقل فوق الواقع للخيال.

لكنّني كيف سأفتح الموضوع!!

لا بأس سأبدأ بالتودد لها، وسأبدأ بالسلام في الصباح وفي المساء، أو ربما أذكرها بأمر نسيته كسلة المهملات مثلا، أو أقوم بطرد الأطفال الذي يلعبون الكرة بقرب منزلها، كي أسمع شكرا أو أي شيء من هذا القبيل.

أحدّق في المدى المحاصر في حجرتي، وأنا أحسّ بالخواء في ركبتيّ، أمدّ أصابعي تحت الوسادة لأخرج بعض الأوراق النقدية، ضغطت على مكبس الإضاءة في الأباجور لينفضح المكان ويكشف أشيائي المبعثرة والتي تحتاج ترتيبا طويلا.

لن أدع أمي تفتح فمها بالسخط والويل وحوادث السير الموزعة في كل أرجاء البيت، سأبدأ بتقليم أظافري، وسأنظف ثيابي، وسأغتسل قبل مشاركة الطعام مع معشر الكسالى خلا والدي الذي قال لي يوما:

---

[4] سلخ الثعبان : ترجمة من مثل بالدارجة المغربية « سلخ الحنش» والذي يعني الاستمناء .

«لم يبق من رجليك سوى المفاصل البارزة، أمصاب بالتّوكال[5]،أم أنك غارق في الموقع الأزرق، قبّح الله سعيك»

نزلت للصالة المثاخمة لغرفة أختي الشريرة، والتي ظلت تراقبني كل هذه المدة، فلا هي استمتعت، ولا هي تركتني أستمتع بصديقتها التي تشبه قرد الكوالا، ولكن كما يقول المثل الذي اجترت معناه دائما، أنّه يجب تمرينه كي لا يتّكل فينام ويتقاعس، ويدعك حتى اليوم المنشود فيخيب آمالك كلّها، فهذه قضية مهمة مابعدها قضية، لا فلسطين ولا العراق ... ولا حتى قضية صحرائنا ...

كانت الشريرة تتأخّر دائما قبل النوم، فكلما أردت اقتناص وقت التسلل لمنزل صديقتها، أجدها حارسة، جالسة في الغرفة المجاورة للدرج، كأنها تعرف.؟ أو كأنّها اعتنقت مثل «لا ربّح الله أقرعا ولا صاحب شعر» إما سواسية أو لا أحد، فتبّا لها ولمن علّمها الشر.

وجدت فنجان القهوة وبعض الحلويات الرخيصة، ورحلت بعيني إلى ما وراء الكؤوس والزجاج، لتقع عيني على بضع دريهمات قد سقطت من جيب أبي الخلفي، فقد سبق أن تناول الإفطار، ورحل إلى المقهى من جديد ليتغزّل بالنادلة سعاد، تلك المتسخة صاحبة اللثة السوداء والأسنان الصفراء، لا حظ لها في الدنيا ولا في الآخرة والله المستعان.

كانت تلك الجلسة ضرورية بالنسبة له، كي يجدد نشاطه، ولكي يتقبّل ولو قليلا واقع أمي العجوز التي لم يتبق من صور جمالها سوى اللون الأبيض، ولكي يخف ضجيجه، فكلما سمعته والدتي يهمس في الهاتف بصوت حنون ومصطنع، طرقت أبواب التّوم وتركته يجامل خليلته النادلة، لتدير ظهرها للمرآة المؤطرة بالخشب المعتّق والتي تخبرها دائما بزوال جمالها وقرب النهاية.

تسحب غطاء السرير حتى ذقنها، وتمرر نظراتها السامة أمام غرفتها لتراقب حركاتي وسكناتي، فمنذ أن وجدوني في المنزل أتحسس نهود دمية كبيرة بإحدى الغرف، صرت عنصرا خطيرا ...

---

[5] التّوكال : مرض يصيب الإنسان في معدته ، ويؤدي في غالب الأحيان إلى الموت ومن علاماته الهزال الشديد، وهو نوع من السّحر الفتاك .

يجيء صوت من مكان قريب، وهو صوت أخي الأكبر ربما ... من الطابق الأرضي أسمع خطوات واثقة هادئة، يتقدّم يصعد الدرج، ويمر من الممر الضيق مسلّما على والدتي رافعا راحة يده، اقترب من الغرفة ودنا مني وقد داس على السجادة الحمراء في الغرفة بنعليه المتربتين، وحين رأيت ذلك تيقنت من عظم الجرم، أغلقت عيني، وكتمت أنفاسي وأنا أنتظر صفعة قوية، فقال: «افتح عينيك ...»

وتلاشى في أذني صوته: «أين علبة السجائر»

بانت خطواته أكثر خفة ليختل توازن جسده، ليسقط على الأرض وأسقط معه، وليتبعنا إبريق القهوة هو كذلك، وليهرول أخي خارجا من البساط، وقد خلع نعليه وهب راجعا لمساعدتي كأنّ شيئا لم يقع.

شموع وردية مرتبة فوق الطاولة، تكاد تسقط حتى هي، ويا ويل من يشوه منظرها المقدس لدى الوالدة، الويل ثم الويل له.

اهتزت الستائر وانسل برد صباحيّ لداخل الغرفة لتصيح أمي: «من فتح النّافذة»

تقدمت الأم باتجاه الغرفة بمشية أشبه بالهرولة مجهدة نفسها، فاتجهت للنافذة وهي تقول: «ستمتلئ الغرفة من جديد بالتراب، من فتحها ... يا كلاب ... يا حمير ...»

كان صوتها يتعاظم في كل لحظة والشرر يتساقط من عينيها كغيمة من الرماد الساخن، يتفضفض الثأر وينتشر في الغرفة.

زحفت حول الطاولة، فهربت بجلدي، فالمصيبة عظيمة والمصاب جلل.

أسرآك / تارودانت / المملكة المغربية / 9/2/1998

رُقيةٌ في سبيل اللهِ

صوتٌ يطرق بوّابة نومي، ويهتف بي مناديا من مكان بعيد، لا نغمة معروفة، لكنّه نفس الصوت الذي أسمعه دائما، والذي بمقدوره أن يزعزع كياني ويبث فيّ الرعب والخوف، ليس مهمّا كيف يأتي ومتى وأين، بقدر أهميّة معرفة ما هو؟

ليس هناك وضوح كاملٌ في المسألة، كان ولا بدّ لي من زيارة صديقي الراقي سفيان، لقد تحوّل منذ شهرين تقريبا إلى مركز آخر في طرف المدينة، استعنت ببعض دريهمات كانت بجيبي لأوقف سيارة أجرة بيضاء ثم اتجهت إلى المكان المعلوم عند الراقي أبو حفص المغربي كما كتب على لافتة مركزه دائما.

عجلت زيارتي هذه بدون موعد، وذهبت بخطى صعبة كأن قوة تمنعني من الذهاب، وصار لوقع خطواتي عليّ الأمر العسير، وصار لباطن قدميّ تأثير مميّج كالدغدغة.

وصلت وإذا بي أمام عمارة من خمس طوابق، وصديقي بالطابق الخامس، فوق مصحة للطب النفسي، هذه الصدفة النّكتة والتي ضحكت معها لسنوات.

أحسست بشيء داخلي رقّ وتاق لكسر حدود هذا الجسد الهزيل، وأنا أتسلّق السلالم مسرعا مشتاقا لصديقي الراقي، فإذا بي أرى في الطابق الثاني عظمة لا مثيل لها، لقد أمسكتْ بطرف ثوبها المهفهف على

جسدها، وقد انفتح بعدما نفخ فيه الهواء المنبعث من نوافذ الدّرج، خلتها ستطيرُ كسوبر مان مثلا، ولضخامتها الهائلة فنّدتُ الفكرة مباشرة ... لم أكترث.

تقدمت نحو الطابق الخامس بقوة، وقد انتصب الذي على بالكم من جديد، فلم أستطع التجاهل. التفتت من جديد لأرى ثديين مكوّرين، متوسطي الحجم، تحت ثوبها اللاصق، انحنت نحو قدميها لإعادة لملمة خيوط ربط حذائها الرياضي، ليختلّ توازنها ولتميل لجانب الدّرج، لأباعد بين ساقيّ لألتقط هذا الزلزال من اللحم الأحمر، ولكي أعينها على استرداد توازنها، فالتفتت إليّ بدون صوت وبأناة، استقامت وأكملت مشوارها، بدون شكر ولا حتى ابتسامة.

بدأت تتجلى لي الأشياء تحتها، وأنا أحدّق بتريث، فتلاشى كل شيء تقريبا عند الطبيب النفسي في الطابق الرابع، لأغبط الطبيب عن حالته النفسية التي ستتحسن عند رؤية هذا الحقل المحروث الذي لا حد له من هذه الهضاب والكثبان.

أتممت الصعود لأقف أمام شقة الراقي سفيان، فكرت مدهوشا مبهورا عن السبب الذي جئت من أجله، دفعت الباب فإذا بي أسمع الراقي يقرأ القرآن مستعينا بمكبر صوت، جلست في قاعة الانتظار، فقد وجدت الباب مفتوحا، قاعة انتظار مرتبة ومنظمة، لأجد امرأة ناهزت الأربعين وابنة مراهقة على ما يبدو، فالكل ينتظر، كل الأكسسوارات في مكانها، رفوف الأعشاب والأدوية الطبية الطبيعية، صورة للملك محمد السادس وهو يحمل سبحة ملوحا بيده من على عربة للجياد، وعلى الطرف المقابل شهادات عدة في تكوينات مختلفة، و في أماكن مختلفة من العالم، وأمامي مكتب صغير فوقه يومية لإحدى شركات الحليب وكتاب للطب النبوي، وبعض الأقلام المبعثرة، كل شيء ثابت بقانون سنة الخلق .

رمقتني المرأة وابنتها –على ما يبدو من الشبه القليل بينهما–بنظرة استعطاف أو حيرة، فقلت بعفوية: «نسأل الله العفو للجميع »

لتجيبني بخنوع وانكسار: «آمين»

وبعد ذلك تركت لهما صوتا فارغا وخاويا إلى أن أطرق علي سفيان سواتر نومي ليوقظني وليخرجني من دفء الأحلام الخادع، ورغم برودة الطقس رشني بماء بارد مازحا وقد انطلقت ذراعاي باتجاه السماء، وتطاير الماء قليلا وانطرح فوق البنت المراهقة لتسقط مغشية عليها فتدخل في نوبة صرع عنيف، ليتبين أن الماء ماءٌ قرآن.

ازداد صياحها وأنين أمها صخبا، وصار لجسديهما هيئة أخرى، بدأ صديقي مباشرة يقطر على أطرافها ماء من زجاجة خضراء، وبدأ يقرأ آيات متفرقات من المصحف الشريف، يقرأ بصوت مرتفع ويشير إليّ كي أساعده في حمل الفتاة إلى داخل غرفة العلاج والتي تحتوي مكبرات صوت وسرير مريح وبعض الأحزمة لربط المصروع عند اشتداد الصرع، طفا شعرها القصير ليكشف على ملمس ناعم، استلقت على ظهرها، وكان صوتها قد غاب وبدأت تقول هامسة في أذني: «إنه هناك ... يرصدني، أتراه؟»

تنبهت إلى أن صوتها قد تغيّر وبات ثقيلا وقويا، والجسم قد صار صلبا وقويا هو كذلك. انطلق الراقي واسترسل في قراءة القرءان لتقاوم الفتاة بقوة وتزداد ضربات ذراعيها وركلات ساقيها، وأنا أقاوم ممسكا رجليها، فكانت تطوي ركبتيها بسهولة تامة، فانتقلت إلى وضع يدي عليهما، كان الأمر صعبا علي لأنتقل وأضع ركبتي على ركبتيها كإجراء هو الأخير، كانت يدي على فخديها، ومع كثرة الكرّ والفرّ بين الراقي والجني انزلقت يدي بنعومة وسلاسة وطارت أشياء في داخلي عابرة حدود الجسد، لتنطرح نشوة تحسستها لثوان، قبل أن تهدأ وتركن للهدوء والانصياع.

كان فخدها رطبا طريا، فرغم أن حالتها مريعة وغير داعية لإثارة الشهوة إلا أن غيبتها تلك، دفعتني لأزيد فأتحسس فخدها، وفي لحظة من اللحظات انقلبت على جنبها الأيمن، لأقتنص فرصة لمس مؤخرتها الصغيرة ... للأسف.

لقد عصيت كلماتي الأولى واستحضرت خطوطا عريضة تنخر في قلبي، كلمات ظلت تروج في المقاهي والجلسات، فلا بد لي أن أصارح من خلف ستائر الكتاب والورق، والتي أكل النفاق زهرة اللون فيها والحقيقة،

فغلاضة السكون في مكان الذكريات، يوجد بحر من البوح الصريح والكلمات ... لا يدحض ... ارتديت ثوب الحقائق هنا.

أخذت بطرفي معطف ثقيل، وضممت أصابعي الصغيرة على الإمكان ... فبعد انتهاء الرقية، انفرد سفيان بالمرأة وابنتها بعد أن تخلصت الأخيرة من ساكنيها ولو لفترة وجيزة. أخذت مقدار من المال يقدر ببعض الفئات الزرقاء، ولم يقف الراقي هنا، بل حاول أن يبيع المزيد من المراهم والزيوت بدعوى أنها مفيدة للبنت والتي لم تكن سوى ميت بين يدي مغسله.

خرجت البنت لقرب الباب تنتظر والزمن يعصف بها وهي في حالة سهو وإعياء، وقد جرفتني موجة الحنين بعيدا، وعلبة السجائر في معطفي تحسستها كي أخفيها عن صديقي، وأنا أنظر متمعنا لفتاة بيضاء تآكلت حوافها من فرط الهم، أو سحر، لا أدري؟ ضاقت حتى عسر عليها التنفس، تساءلت؟ من ألوم؟ ... وكيف تُحلب هذه الأم بكل هذا الجشع.؟ أخذت بضع دريهمات من جيبي وأعطيتها للفتاة مطأطأ الرأس، وانصرفت لحالي مسرعا ... بغير أي وجهة معلومة، وبكسل ولا مبالاة.

درب السلطان / الدار البيضاء/ المملكة المغربية / 18/5/2005